المحاضرة 09: الشعر الموجه للطفل

أولا: شعر الطفل، الأهداف والمميزات:

الشعر الموجه لهذه الفئة هو نوع من الأنواع الأدبية التي تعبّر عن تجارب يمر بها الطفل، فهو "فن من فنون أدب الأطفال يسهم في نموهم العقلي والأدبي والنفسي والاجتماعي والأخلاقي"[1]؛ ولأنّه يساهم في توسيع آفاق الأطفال وتحفيز تفكيرهم الإبداعي والتخيلي فيتعرف الأطفال على مفاهيم جديدة ويطورون مهارات الفهم والتحليل، كما يعزز المهارات اللغوية، من خلال تعريفهم بمفردات جديدة، أو تعلمهم قواعد النحو والصرف. إضافة إلى أنّه يساعد بشكل مباشر على فهم مشاعرهم ومشاعر الآخرين، ويوفر لهم مساحة للتعبير عن أفكارهم بطرق آمنة وبشكل إيجابي، وبالتالي يقدم نماذج للتعاون والتفاعل الاجتماعي، وتعزيز قيم المسؤولية.

فمن خلال المواقف التي يطرحها ويناقشها كقضايا الخير والشر، يقوم بتعزيز القيم الأخلاقية مثل الصدق والعدل والإيثار ودحض اللاأخلاقي منها، ما يمنحه إدراكا لما يدور حوله، ويجعله قادرا على التعامل مع المواقف الحياتية المختلفة بعيدا عن الارتباك والجبن والخوف.

يتميز أدب الطفل بلغته المبسطة والمناسبة لفهم الأطفال، والشخصيات الجذابة والموضوعات التي تهم الأطفال مثل الصداقة، والمغامرة، والعائلة، تلبية لاحتياجاتهم الإدراكية والعاطفية والثقافية، من خلال ما يوفره من تجارب أدبية تشبه تجارب الحياة بطريقة تناسب وفهم الطفل وخياله، لذا فالشعر الموجه للطفل "جنس أدبي متجدد في أدب الكبار (الشفهي والمكتوب) ويتوجه لمرحلة الطفولة مراعيا المستويات اللّغوية والإدراكية للأطفال، ويرقى بلغتهم وخيالاتهم ومعارفهم واندماجهم مع الحياة بهدف التعلق بالأدب وفنونه، لتحقيق الوظائف التربوية والأخلاقية والفنية والجمالية"[2]؛ إذا لا يركز الشعر على الجانب الفني والترفيهي فحسب، بل يحمل أهدافًا تربوية وأخلاقية، حيث يسعى إلى تعزيز القيم والمبادئ الحميدة وتنمية مهارات القراءة والكتابة، وتحفيز الفضول والاستكشاف، لذا لابد من مراعاة "القواعد الأساسية في فن الكتابة بصفة عامة سواء أكان الجنس الأدبي قصة درامية أو أغنية أو أي صورة أخرى"[3].

يعد الشعر الموجه للطفل وسيلة تعليمية بالدرجة الأولى، حيث يقدم مواد تعليمية بشكل ممتع ومشوّق، تساعد الأطفال على فهم مفاهيم معقدة وتطوير مهارات جديدة فهو "وسيلة من وسائل التعليم والمشاركة والتسلية وسبيل إلى التعايش الإنساني وطريق لمعرفة السلوك المحمود وأداة لتكوين العواطف السليمة للأطفال، وأسلوب يكشف به الطفل عن مواطن الصواب والخطأ في المجتمع ويقفه على حقيقة الحياة"[4]، حيث يعزز التفاعل الاجتماعي بين الأطفال من خلال تقديم قصص وشخصيات يتمكنون من التعرف عليها ومشاركتها مع بعضهم البعض، ما يمنح الأطفال فترات من المرح والتسلية.

كما يعرض قضايا مختلفة يظهر من خلالها تنوع العالم، ما يساعد الأطفال على فهم مفهوم التعايش مع الآخرين، فيكون لهم معولا يساعدهم على تكوين العواطف السليمة "إنه الأثر الذي يثير في الأطفال لدى قراءتهم أو سماعه متعة واهتماما، ويحاول أن يغيّر من قيمهم واتجاهاتهم ويحدث أثرا واضحا في دفع العواطف والعقول"[5].

إذا يعبر الشعر عن مجموعة واسعة من المشاعر والعواطف، كالفرح والغضب والتفاؤل هذا يساعد الطفل على فهم عالمه الداخلي، ومن ثم التعبير عنه "فقد توجهت الأنظار بشكل خاص نحو القصة والشعر والمسرح لما لها من أثر في تنمية الذوق السليم وفي الكشف عن مواهب المتعلمين وأحوالهم العاطفية والخلقية"[6]، وما يمرون به من أزمات عاطفية وهو ما يساعد الأفراد على فهم مشاعرهم وتحديد ميولاتهم، لذا فهو جزء مهم من الثقافة الإنسانية ويساهم في تشكيل وتأسيس تجارب وأفكار ومشاعر الأفراد ، "فالشعر يؤسس خبرة الإنسان وأفكاره ومشاعره في مختلف مراحل حياتهم"[7].

ثانيا: نموذج لشعر الطفل ديوان "أهازيج الفرح" للشاعر "حسن دواس"

-دلالة العنوان:

يعتبر العنوان العتبة الأولى التي لابد من طرقها قبل الدخول إلى المتن "فكما أننا لا نلج الدار قبل المرور بعتباتها، فكذلك لا يمكننا الدخول في عالم المتن قبل المرور بعتباته؛ لأنّها تقوم من بين ما تقوم به بدور الوشاية والبوح"[8]، فهو يساعد القارئ على فهم وتقدير مفاهيم وأساليب النصوص قبل الانغماس في دراستها أو استيعابها بشكل كامل، لذا لا يمكن تخطيها قبل فهمها وتسليط الضوء عليها.

فالعنوان جزء لا يتجزأ من النص، يمثل نوعا من العتبات والمقدمات التي تدفع القارئ إلى اتجاه معين في التفكير، ومن ثم تصنيف النص أو الحكم عليه، وبالتالي وجود علاقة تواصلية بين العنوان والمتن، حيث يقدم العنوان إشارة لما يتوقع القارئ أن يجده في النص لكنه يحمل "علاقات اتصال وانفصال معا؛ علاقة اتصال باعتباره وضع في الأصل لأجل نص معين وعلاقة انفصال باعتباره يشتغل كعلامة لها مقوّماتها الذاتية كغيرها من العلامات المنتجة للمسار الدلالي، الذي نكونّه ونحن نؤول النص والعنوان معا"[9]، إذا فهو يمثل علامة لمضمون النص، ولكنه في الوقت نفسه يحمل مقوماته الذاتية؛ أي أنّ له معاني ومرادفاته الخاصة التي يمكن أن تتماشى أو تتناقض مع محتوى النص، وهذا يشير إلى العلاقة الانفصالية بين العنوان والنص، حيث يمكن أن يقدم العنوان معانٍ مختلفة أو مفاهيم متعددة بعيدة عن مضمون النص نفسه.

يؤثر العنوان في توجيه فهم القارئ لمضمون النص وفهمه، وتتعدد أشكاله بتعدد وظائفه فنجده إما أن "يكون كلمة، ومركبا وصفيا ومركبا إضافيا، كما يكون جملة فعلية أو إسمية وقد

يكون أكثر من جملة"[10]، أما عنوان الديوان قيد الدراسة "أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، أناشيد للأطفال" فقد ورد جملة اسمية ناقصة حذف فيها المسند إليه، فغيابه "يجعل أمر تأويل (المسند) تأويلا حرا ولا متناهيا"[11] فلا يمكن تقدير الفراغ إلا بعد دراسة المتن.

إذ جعل بنية العنوان في حوار مستمر مع نصوصه، ذات إحالات دلالية عميقة تتجاوز البنية التركيبية، إلى عالم الخطاب المفتوح فأفضت مسارات التدليل في المدونة عن تناسق متناه بين دلالات العنوان ومضمون النصوص، ولعل عبقرية العنونة تكمن في تمكنها من حيث نلاحظ من الوهلة الأولى نصوصا تتميز بالاختلاف إذا لا يمكن فهم العنوان إلا على ضوء المتن.

إذا يتكون العنوان من وحدتين أساسيتين هما "أهازيج" و"الفرح"، فالكلمة الأولى وردت بصيغة الجمع؛ ومفردها أهزوجة وهي ما يترنم به "والهزج تدارك الصوت في خفة وسرعة"[12] ما يجعل هذه المفردة تحمل دلالة التكرار والانشاد الذي يبعث في النفس الفرح والانشراح، وهو ما يؤكده المضاف إليه "الفرح" ما يعمق دلالة بعث الأمل والسرور والمتعة في قلب الطفل

هكذا يكون العنوان جواز سفر تعبر به كلمات الشاعر إلى عالم الطفولة، ما يخلق علاقة وطيدة بين النص والطفل هكذا يمدنا العنوان "بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته ونقول هنا إنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النصوص فهم ما غمض منه"[13]؛ ليعانق بكلماته أحاسيس الأطفال ويترك أثرا جميلا يطبع في نفس المتلقي.

وفي هذا المقطع تأكيد على حرص الشاعر على تقديم المتعة والفرح للطفل فيقول:

يا أيها الأطفال هب وا واملؤوا الدنيا مرح

هذي أناشيد المنى هذي أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، أناشيد للأطفال

تفسحوا بروضها فإنها خير الفســح

حروفها فصيحة لذيذة طعم البلــح

أنغامها بديعــة كالعندليب صدح

ألوانها جميلة يا حسنها قوس قزح

إذا الفؤاد لامست سرا بغيض ينشرح

غنوا وغردوا معا حرف فرح، حرف فرح[14]

ففي بداية القصيدة يدعو الشاعر الأطفال إلى أن ينتشروا ويصنعوا جوا من الفرحة، فبراءتهم ومحبتهم للحياة من شأنها أن تريهم كل شيء جميلا ومميزا، ثم يقول "هذي أناشيد المنى/هذه أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، أناشيد للأطفال، فهو يعرف الطفل بكنه هذه الأشعار والهدف منها والذي يتعدى مهمة الترويح عن النفس إلى التعليم (حروفها فصيحة، حرف فرح).

يوظف الشاعر كلمات بسيطة تتميز بالوضوح، بعيدة عن الابهام والغموض تحمل دلالة الحيوية والنشاط، ذات بعد بريء يناسب الطفل، ويمكن تصنيف القصائد الواردة في الديوان حسب الحقول الدلالية التي تنتمي إليها، فالحقل الدلالي هو "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها وتوضع تحت لفظ عام يجمعها"[15]، فهي ذلك المخزون اللغوي والثقافي الصادر من الشاعر.

الحقول الدلالية:

1-حقل البطولة:

تكل معاني البطولة بصفة عامة موضوعا حساسا لدى الأطفال، فكل واحد منهم يتخيل نفسه بطلا، أو يريد أن يكون كذلك بما يثيره هذا المصطلح من دلالة التفوق والنجاح والتميز، وهو ما نجده في المقطع الشعري الآتي:

أنا شذا البشائر وشعلة المفاخر
أحقق الأماني بالجد والتفانـي
وأبلغ الأعالي بالكد والنضال[16]

يستعمل الشاعر ضمير المتكلم "أنا" الذي يعزز الشعور بالفردية والتميز في نفس كل طفل يردد هذه الكلمات، وما نلاحظه في هذه الأبيات أنّ الشاعر يقدم النتائج على الأسباب، حين يتحدث عن تحقيق الإنجاز، وبلوغ أعلى المراتب ثم يذكر السبب المتمثل في الاجتهاد والتعب، ليعزز في الطفل شعره بالإنجاز مهما كان العمل الذي يقوم به صغيرا، إلى جانب خلق صورة ذهنية عن الذات تتميز بالاعتزاز والفخر ويؤكد له أنّ من يجد ويجتهد سوف يحصل على أفضل النتائج دون شك، فهو لا يترك مجالا للتردد نهائيا. في مقطع آخر نجد:

أنا تلميذ واسمي أنور
في عمري سب ع لا أكثر
أصلي سام لوني أسمر
لغتي مسك ديني عنبر
أمي فل وأبي سكر[17]

يستمر الشاعر في تعزيز الشعور بالفخر من خلال توظيفه للضمير المتكلم، لكنه هذه المرة لا يترك الطفل ذا ملامح مجهولة بل يترك لنا بطاقة هوية له:

-الصفة: تلميذ
-الاسم: أنور
-السن: سبع سنوات
-الأصل: سام، العروبة
-لون البشرة: أسمر، جزائري إفريقيا

-اللغة: العربية

-الدين: الإسلام

هكذا يرسم لنا الشاعر ملامح التلميذ الصغير أنور الذي يعتز بانتمائه وتاريخه العريق، ليكون أنور معادلا موضوعيا لكل طفل في سنه، يرى نفسه من خلاله فيتصف بصفاته، فأنور حسب دلالة القصيدة تلميذ مجتهد بطل في قسمه لا يخجل من أصله ويتكلم لغته بفصاحة، يحرص على تعلم تعاليم الدين، وبار بوالديه، هكذا يحاول كل طفل أن يتماهى مع هذه المعاني ليحقق الشاعر غايته وهي السمو بالطفل.

ينتقل الشاعر من شعور الأنا إلى النحن بكل سلاسة ومرونة، لغرس حب الوطن في وجدانهم ليصدح الأطفال بكلمات الحب والإباء، فيقول:

نحن أطفال الجزائر نحن أعلام المفاخر

سنغني وسنشدو عاليا ملئ الحناجر

حلمنا مجد الجزائر

نحن في الصفو ورود نبضنا بالطهر غامر

نمقت القبح ونهوى كل أخّاذ وســـــاحر

حلمنا دوما جميل طافح بالحب طاهر[18]

للكلمات وقع قوي فقد وظف الشاعر الحروف القوية الجهورة والتي تتسلل إلى لاوعي الطفل الجزائري وتجعل منه شخصية قوية يملأها العز ولا ترض بالذل والهوان والانكسار، هكذا تخيط هذه الكلمات ثوب الحب وروح الانتماء لهذا الوطن الحبيب.

2-حقل العلم والمعرفة

يحاول الشاعر الربط بين الطفل والعلم وبناء حلقة وصل لا تنقطع، فيقول:

نحن في العلم شموس ساطعات في الأعالي

ونجوم لا تضيء ال أفق إلا بالاشتعال

وقتنا في العلم يمضي ليس في قيل وقال

دوما للعلم تهفو لا لأملاك ومال[19]

هنا ينتقل الشاعر من ضمير المتكلم أنا إلى ضمير المتكلم نحن، تعزيزا للوحدة والانتماء من جهة وترسيخا في ذهن الطفل أن الهدف واحد وهو الارتقاء وطلب العلم والمعرفة، فكلمة شموس نجوم تدل على الارتقاء، والبيت الثالث عمل على تربية الطفل على الأخلاق الحميدة وبذل النفس في ينفع وترك ما لا طائل منه كما عبّر عنه الشاعر (قيل وقال)، كما يجعل هذا الهدف نبيلا في ذاته لا يبغي منه الانسان أجرا، ما يجعل الطفل يدر قيمة المعرفة ويسعى لتحصيلها، بعيدا عن البحث عن الجوائز التشجيعية والمال فيدرس دون انتظار المقابل، وهو ما

افتقدناه في مدارسنا. فكما يسعى المبدع إلى تحبيب الطفل افي العلم فهو يحببه في أدواته المدرسية التي بها يستقبل المعرفة:

محفظتي حديقة معطرة وغابة من العلوم مثمرة
محفظتي يا حسنها جميلة جليلة ثمينة كالجوهرة
محفظتي لها جيوب عدة بها كنوز جمة لا تشترى
محفظتي للأمنيات روضة وللخمول والركود مقبرة
كم لازمتني وكم لزمتها في رحلة المآثر المظفرة
معلمي يحبني لأنني أجلها كالوردة معطرة[20]

يستهل الشاعر الأبيات الأربعة الأولى بكلمة (محفظتي) المعرفة بالإضافة، للدلالة على الحاق التلميذ بالمحفظة، وهي رفيقته في دربه العلمي تلازمه في البيت والمدرسة، تحتوي على أدواته التعليمية من كتب وأقلام، أما البيت الأخير (معلمي يحبني لأنني /أجلها كالوردة معطرة) فهو تعليم للتلميذ لأهمية المحافظة على أدواته وحقيبته، من خلال استمالته عاطفا واغرائه بحب المعلم له، لما في ذلك من أثر كبير على نفسيته وسلوكه. فالشاعر لا يبعد الطفل عن التطور التكنولوجي بل يعرفه على هذا العالم الجديد عليهم، فيقول في قصيدته "الحاسوب":

فيه علم فيه فـن كالسحر وموسيقى تطرب
وله لوح من كم مفتـ ـاح لكي نحسب ونكتب
وله فأر زلاّق يبـــ حث يغلق يفتح ويحسب
وله بالمركز ذاكرة ملأى بالأشياء الاعجب
وله أقراص تحوي أسـ ـرارا ومعارف لا تنضب[21]

يعدد الشاعر مكونات جهاز الحاسوب بطريقة مسلية تبعث الإعجاب في نفس الطفل وتدفعه إلى التجربة وحب المغامرة واكتشاف الأشياء الحديثة، ما يجعله يحس أنه أكثر ذكاء وقادر على استقبال المزيد من المعرفة.

3-حقل الطبيعة:

مرحلة الطفولة مرحلة الانطلاق والاكتشاف والحرية، فحبس الطفل في البيت ثم سجنه بين جدران القسم والمدرسة التي يقضي فيها وقتا طويلا من شأنه أن يبعث في نفسه الفتور ويحد من خياله واستمتاعه بالطبيعة، ما يجعل سلوكه عدوانيا، وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

حديقتي يا رفقتي لو تعرفوا كجنة بديعة لا توصف
أصونها وأعتني بزهرها أحبها وسحرها لا أتلف
وكلما أنهيت حل واجبي على بهائها النضر أشرف
أجول في أنحائها مبتهجا ونوع كل نبتة أصنف

أسقي ترابها من ماء بئرنا لكنني في مائة لا أسرف
حديقتي جزيرة إلى جما لها يسافر الشعور المرهف[22]

نلاحظ اسناد الحديقة للطفل حديقتي والتي تتميز بالجمال والسحر وألوان البديع والأشكال المختلفة، إضافة إلى ما تحتويه من نباتات بأصنافها وحشرات بأنواعها، ما يصقل قدرة الطفل على الملاحظة ومتابعة هذه الأشياء بفضول العالم الصغير، ومن ثم توظيف نشاطه وطاقته في سقي النباتات أو غرسها ما من شأنه أن يعدّل سلوكه بعيدا عن العدوانية والاحساس بالتقييد من قبل المعلم في المدرسة، فهو هنا يصول ويجول كما يحلو له، هذه الكلمات تستطيع أن تمنح الطفل الشعور بالحرية والمتعة.

هوامش المحاضرة:

(1) هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه، ص208.
(2) أحمد زلط، أدب الطفولة بين كامل الكيلاني و محمد الهراوي، دار المعرفة، القاهرة، د.ط، 1994، ص28-29.
(3) أحمد نجيب، في الكتابة للأطفال، دراسات في أدب الطفولة، دار اقرأ، بيروت، د.ط، 1983، ص31.
(4) علي الحديدي، في أدب الأطفال، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة د.ط، 1982، ص64.
(5) عبد الفتاح شحدة، أدب الأطفال وثقافة الطفل، ص25.
(6) إسماعيل الملحم، كيف نعتني بالطفل وأدبه؟، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، ط1، 1994، ص22.
(7) حسن شحاتة، أدب الطفل العربي، دراسات وبحوث، ص280.
(8) بلال عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص، ص133.
(9) رشيد يحياوي، الشعر العربي الحديث، دراسة في المنجز النصي، ص110.
(10) عبد العالي بوطيب، آليات الخطاب الإشهاري، مجلة علامات، ص121.
(11) محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ص100.
(12) ابن منظور، لسان العرب، مج2، دار صابر، بيروت، د.ط، د.ت، ص391.
(13) محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الرباط، د.ط، 1987ص82.
(14) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، مطبعة الوفاء، سطيف، الجزائر، د.ط، 2002، ص5.
(15) أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992، ص79.
(16) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، مصدر سابق، ص16.
(17) المصدر نفسه، ص17.
(18) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، مصدر سابق، ص11.
(19) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، مصدر سابق، ص19.
(20) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، مصدر سابق، ص87.
(21) المصدر نفسه، ص9.
(22) حسن دواس، أهازيج الفرح، أناشيد للأطفال، أناشيد للأطفال، ص15.